الفصل الثامن عشر

العباسيون

١٩٨ — ٢٣٢ هـ (٨١٣ — ٨٤٧م)

المأمون العظيم — المعتصم — الواثق

المأمون فى مرو — الاضطرابات فى بغداد — وفاة الإمام على الرضا — المأمون فى بغداد — الحروب مع الروم — المذهب العقلى — وفاة المأمون — أخلاقه — تطور حياة العرب العقلية فى عهد المأمون — خلافة المعتصم — تغيير العاصمة — تأليف الحرس التركى — القبض على بابك — انهزام الروم — وفاة المعتصم — خلافة الواثق — أخلاقه — وفاته

المامون فى مرو

لو أن « المأمون » قصد توا إلى بغداد لما اختل حبل الأمن هناك ، ولما وقعت تلك الاضطرابات فى السنوات القلائل التى أعقبت انتصاره على الأمين ، ولكنه اعتمد على وزيره الطموح « الفضل بن سهل » تاركا له إدارة شؤون البلاد ، قاصراً همه على مناظراته الفلسفية مع العلماء والحكماء الذين كانت تتألف منهم بطانته ؛ وكان الفضل من جهته يتوق إلى إبقاء الخليفة تحت نفوذه فى مرو ، لذلك لم يكن ليسمح قط بأن تتطرق إلى مسامعه الأخبار الحقيقية عن شؤون الدولة فى المغرب .

الاضطرابات فى العراق وجزيرة العرب

و بعد وفاة « الأمين » بقليل ثار أحد أشياع الأمويين واسمه « نصر »[1] فى الجزيرة متحديا جيوش الخليفة طوال خمس سنوات ، كما ثار فى تلك الأثناء بعض القبائل على الحسن بن سهل الذى كان قد ولاه أخوه الفضل على العراق

---

(١) هو نصر بن شيث من عشيرة عقيل .

ويلاحظ أن هذه الحادثات لم تقع دون أن تؤثر على أحفاد « على » الذين خرجوا الآن مع أولاد جعفر الملقب بالطيار على الخليفة ، ولم يكن لهؤلاء إلى الآن اسم يذكر أو صوت يسمع ، ولكن لم يمض سوى قليل حتى أيقنوا أن ساعة العمل المثمر قد أزفت ، وأن الفرصة المواتية قد تهيأت لاستعادة حقوقهم المغصوبة

جمادى الثانية ١٩٩هـ ٨١٤م

كذلك ظهر علوى آخر يسمى « ابن طباطبا » فى الكوفة وأخذ يدعو الناس لآل البيت ، وكان يعضده فى دعوته « أبو السرايا » أحد قطاع الطرق ، فوحد الاثنان صفوفهما واقتتلا مع الحسن بن سهل فى عدة معارك حتى هزماه واستوليا على جنوبى العراق كله ، ولكن « ابن طباطبا » مات مسموما بتحريض من أبى السرايا الذى ولى مكانه أحد الشبان العلويين .

وفيما كان أوار تلك الفتن يستعر على ضفاف دجلة بويع « محمد بن جعفر الصادق » بالخلافة فى الحجاز ، وهكذا أصبحت البلاد من حدود فارس إلى اليمن تفيض بالفتن والقلاقل ، فعم القتل وانتشرت الفوضى فى كل مكان ؛ ولكن الوزير برغم ذلك لم يسمح بتسرب هذه الأخبار إلى مسامع المأمون . وفى النهاية اتخذت الثورة فى العراق شكلا مريعاً اضطر معها الفضل برغم شدة حقده على هرثمة إلى أن يرسله على رأس جيش كبير لقمع حركة أبى السرايا ، فاقتتل الفريقان فى معركة دامية أسفرت عن هزيمة أبى السرايا الذى أرسله هرثمة إلى مرو حيث صفح عنه المأمون وأدخله فى عداد بطانته . ولما قمع « هرثمة » الثورة فى العراق ولى مصر ، ولكنه رفض قبول هذا المنصب ما لم يطلع الخليفة بنفسه على جلية الأمر ، ويلفت نظره إلى الخطر المحدق به ، فلما دخل على الخليفة دار بينهما حديث

١٩٨ـ٢٣٢هـ

حماسى أفضى فيه إلى المأمون فيما أفضى بأن الإمبراطورية العربية آخذة فى الاضمحلال ، ولكنه ما كاد يترك قصر الخلافة حتى هجم عليه أعوان الوزير بسيوفهم وجرحوه جروحا بليغة توفى على أثرها بعد أيام قلائل ؛ وقد قيل للمأمون

وفاة هرثمة

حينما تفقده إنه طريح الفراش ، ولم يعرف أن الدولة قد فقدت بوفاته خادما أمينا

إلا بعد مدة طويلة . كذلك أثار موته غضب رجال الجيش فى بغداد نظراً إلى تعلق الجيش به وتفانيه فى خدمته ، ويقال إن الفوضى انتشرت من جديد فى كل مكان ، وتألب الشعب على « الحسن بن سهل » وأخيه « الفضل » وانتخبوا مكانه « حسن المنصور » بن المهدى الذى قبل المنصب حتى يصل المأمون إلى العاصمة أو يرسل من ينوب عنه .

٢٠٠هـ ٨١٥م

وفى سنة ٢٠٠ هـ بدأ المأمون بتنفيذ مشروعه الخطير الذى طالما فكر فيه منذ زمن بعيد ، وهو نقل الخلافة إلى آل البيت ، وتحقيقاً لهذه الغاية أرسل فى طلب الإمام الفاطمى « على الثالث » ابن موسى الكاظم من المدينة ، وصرح علانية بأنه نظر فى أبناء « العباس » [1] وأبناء « على » ، فلم يجد أحداً أفضل ولا أحق بولاية العهد من « على بن موسى الرضا » . وفى اليوم الثانى من شهر رمضان سنة ٢٠١ هـ أقام له حفلة البيعة بولاية العهد ، ولقبه « بالرضا من آل محمد » كما أمر باستبدال لون السواد شعار العباسيين باللون الأخضر شعار الفاطميين الذى اختاره شعاراً للدولة ، فأثارت مبايعة على الرضا بولاية العهد غضب العباسيين غضباً شديداً جعلهم يبايعون إبراهيم بن المهدى بالخلافة ، ويطردون عمال الحسن من العاصمة ، فانتشرت الفتنة فى بغداد والمدن المجاورة ، وسادت الفوضى وتغلب اللصوص وقطاع الطريق وعم الخراب ، وزادت أعمال العنف وساءت الأحوال حتى اضطر الأشراف إلى التأهب لحماية أنفسهم وأموالهم ، فألفوا فيما بينهم لجاناً لصيانة الأمن وتنفيذ القوانين ومعاقبة المعتدين بما يستحقون من عقاب ، وظلت هذه اللجان تقوم بواجبها باطراد حتى وصل المأمون بغداد . أما الأحوال فى جنوبى العراق والحجاز فلم تكن لتقل سوءاً عن غيرها من الأمصار ، ولم يكن لإبراهيم ولا للحسن بن سهل أى نفوذ على الناس فى تلك الأصقاع ؛ فانتشرت الفوضى وعم الخطب ، وذهبت الطمأنينة من النفوس ، وغاض معين الأمن ،

مبايعة على بولاية العهد

٨١٣–٨٤٧م

الاضطرابات فى بغداد

(١) بلغ إحصاء الأسرة العباسية فى ذلك الحين ٣٣٫٠٠٠ نسمة .

وتفككت أواصر الإمبراطورية بنتيجة سوء إدارة الوزير الفارسى .

وفى هذه الأزمة الطاحنة توجه الإمام على الرضا إلى المأمون وشرح له الحقيقة ، وأعلمه بأن الوزير إنما يموه عليه الأمور ويحول دون تسرب الأخبار إليه ؛ كذلك أخبره أن أهل بيته قد بايعوا إبراهيم[1] بن المهدى بالخلافة ، وأنهم ينقمون عليه بيعته له من بعده ، وأعلمه أيضاً بكل ما حدث منذ مقتل أخيه الأمين ، فدهش الخليفة وسأل بطبيعة الحال فيما إذا كان هناك من يعرف هذه الحقائق التى أفضى إليه بها فسمى له بعض القواد . ولما سألهم المأمون أخبروه بالخبر الصحيح بعد أن أمنهم على أنفسهم وضمن حمايتهم من غضب الوزير ونقمته ، وزادوا على ذلك بقولهم : إن الخليفة قد فقد بموت هرثمة خادما أميناً ، وإن الفضل دس له من قتله انتقاما منه ، وإن إبراهيم المهدى لم يكن مندوب المأمون كما ادعى الوزير ، إنما أهل بيته بايعوه بالخلافة لنقمتهم عليه . فزالت الغشاوة عن أعين الخليفة وأمر بشد الرحال إلى الغرب على جناح السرعة ، فسافر فى اليوم التالى وبصحبته جميع موظفى البلاط ؛ ولما أدرك « الفضل » أن مكيدته قد فشلت ، وأنه لا يستطيع الإيقاع بالإمام الرضا الذى كان منصبه يحميه من كل اعتداء ، أخذ يصب جام غضبه على أولئك القواد الذين أيدوا كلام الإمام فجلد البعض وسجن البعض الآخر وذبح عدداً غير قليل ممن استطاع التنكيل بهم .

١٩٨ـ٢٣٢ م

سفر المأمون إلى بغداد

وفى هذه المرة ذهب « على الرضا » إلى المأمون وشرح له أعمال الوزير ، فأجابه الخليفة قائلا : إنه لا يستطيع على الفور تجريد الفضل من السلطة والنفوذ ، إنما يجب أن يفعل ذلك بالتدريج ويدارى ما هو فيه ، غير أن أعداء الوزير من أهل فارس كانوا قد توقعوا أن الخليفة سيعزله من منصبه فشد عليه قوم منهم فى

(١) هو أبو إسحق إبراهيم بن المهدى ، وكانت له اليد الطولى فى الغناء والضرب بالملاهى وحسن المنادمة ، وكان أسود اللون ، لأن أمه كانت جارية ، وكان وافر الفضل ، غزير الأدب ، واسع النفس ، سخى الكف ، ولم ير فى أولاد الخلفاء أفصح منه لساناً ، ولا أحسن منه شعراً . (ابن خلكان ص١٢ ج١) . (المعرب)

«سرخس» التى تبعد يوما واحداً عن مرو وضربوه بسيوفهم حتى مات ، فأمر بهم الخليفة و بمحرضيهم فضربت أعناقهم .

وفاة الإمام على الرضا

ولما وصل المأمون إلى طوس ، وهى البلدة التى دفن فيها أبوه الرشيد مكث
٢٠٣ هـ ٨١٨م قليلا من الزمن ، وهنالك فقد صديقه الأمين ومستشاره المخلص «الإمام الرضا»
٨١٣ـ٨٤٧ م الذى أنقذ فعلا الإمبراطورية من الانحلال والخراب . وقد توفى الإمام فجأة[1] وخلفه «ابنه محمد» الملقب بالجواد والتقى ، فحزن عليه المأمون حزنا بالغا ، و بنى له قبراً أصبح منذ ذلك الحين مقصد الحجاج الشيعة يؤمونه من كافة أنحاء العالم ويسمى بالمشهد أو المشهد القدسى . و بعد أن دفنه المأمون واصل سيره إلى العاصمة وكان يقف فى كل مدينة مدة من الزمن تختلف باختلاف خطرها وأهميتها ؛ فمكث فى النهروان ثمانية أيام حيث خرج إليه القواد ووجوه بغداد وأهل بيته ، وكان يلبس الجميع الملابس الخضراء ، ولكنه نزولا على طلب
٢٠٤ هـ ٨١٩م «طاهر بن الحسين» الذى جاء من الرقة ليسير بمعيته واستجابة لرجاء الزعماء الآخرين رجع إلى لبس السواد شعار العباسيين .

وصول المأمون مدينة بغداد

اصطبغ دخول المأمون مدينة بغداد بصبغة النصر والفوز ؛ فأقيمت أعلام الزينة ولبس الناس أبهى الملابس ، وكانت الجموع المزدحمة فى الشوارع تهلل فرحا واستبشاراً بعودة الخليفة إلى حاضرة ملكه ، و بوصوله انتهت أعمال التخريب وقضى على الشغب ، وانحلت اللجان التى كانت قد تشكلت من تلقاء نفسها لحماية السكان ، ونشط الخليفة إلى إعادة تنظيم الإدارة و إصلاح ماخربه المحاربون فى أثناء الحصار . ويقال إنه فى إحدى جولاته الليلية كان أمير الخراج أحمد بن أبى
١٩٨ـ٢٣٢هـ خالد[2] يصف له مبلغ ماعاناه الشعب من الشدة ، فأجابه المأمون بقوله : إن بغداد

---

(١) إن القصة القائلة بأن المأمون هو المحرض على قتل « الفضل » وتسميم (الإمام الرضا) مختلقة ولا أساس لها من الصحة .

(٢) وهو يلقب بالأحول ، وقد أصبح فيما بعد وزير المأمون .

obeikandi.com

ثلاث طبقات : المظلومون والظالمون وثمة طبقة ثالثة [١] هى منبع كل شر وأصل كل فساد .

تعيين طاهر أميراً على العراق ٢٠٥هـ ٨٢٠م

والمأثور أن الخليفة استعمل أحد العلويين على الأراضى المقدسة كما ولى شقيقيه الكوفة والبصرة ، وأسند إدارة الشرطة إلى طاهر الذى لم يلبث أن طلب إمارة المشرق فأسندها إليه ، وظل قائماً بإدارتها حتى وافته منيته بعد سنتين فعين ابنه مكانه وظل قائما بإدارتها سبع سنين ، كذلك استعمل على الشام ومصر عبد الله بن طاهر أحد أولاده المشهورين وهو أكثر مروءة من أبيه ؛ وكان الخليفة قد وكل إليه فى تلك الأثناء قمع فتنة « ناصر العقيلى » فقاتله فى عدة معارك حتى هزمه واضطره إلى التسليم ، ثم أرسله إلى الخليفة الذى عفا عنه كعادته .

وفاة طاهر ٢٠٧هـ ٨٢٢م

وما أن استتب الأمن فى ربوع الجزيرة حتى سار عبد الله بن طاهر إلى مصر التى كانت تعصف بها ريح الفتن الداخلية فنكل بالثوار وهزمهم شر هزيمة فى موقعة واحدة . وكان أمير الأندلس الأموى فى تلك الأثناء قد نفى جماعة كبيرة من مسلمى الأسبان وأخرجهم من البلاد ، فوصلوا إلى مصر مع أسرهم وأحدثوا فى الإسكندرية شغبا هائلا ، فأمرهم عبد الله إما أن يسلموا سلاحهم أو يغادروا البلاد من فورهم ؛ فطلبوا السفر إلى جزيرة كريت وعندئذ زودهم بالمؤونة الكافية والمساعدات التى كانوا يحتاجونها لاحتلال الجزيرة ، كما التحق بهم عدد غير قليل من المتطوعة ، فاستولوا على الجزيرة بعد مناوشات طفيفة ولا يزال يقطنها أحفاد هؤلاء المغيرين ؛ وأصبح مركزهم من أهل الجزيرة كمركز السكسونيين المستعمرين من أهل الجزر البريطانية .

٨١٣ـ٨٤٧م

احتلال جزيرة كريت ٢١٠هـ ٨٢٥م

الاستيلاء على جزيرة صقلية ٢٠٨هـ ٨٢٣م

كان زيادة الله الأغلب قد استولى على جزيرة صقلية باسم الخليفة قبل إغارة مسلمى الأندلس على جزيرة كريت بسنتين ؛ وفى تلك الأثناء قمت الفتن التى

---

(١) يهتم المواطن فى المدن المنظمة باستتباب الأمن ، أما الذين يتجنبون الشؤون العامة فإنما يفسحون المجال للطبقات المشاغبة لانتهاك حرمة القوانين .

كانت مستعرة فى اليمن وخراسان دون صعوبة تذكر ، وعومل زعماء تلك الفتن بالعطف مما لم يسبق له مثيل ؛ ولكن الخليفة لم يلبث أن روع باكتشاف مؤامرة خطيرة واسعة النطاق لاغتياله ، وكان على رأسها عدد كبير من أهل بيته فأنزل بكبار المتآمرين العقاب الذى يستحقونه ، وصفح عن بقية المشتركين وكانوا من عامة الشعب .

٢١٠ هـ
٨٢٥–٨٢٦ م
زواج المأمون من بوران

وفى شهر رمضان المبارك تزوج المأمون من خديجة الملقبة « ببوران » بنت الوزير « الحسن بن سهل » ، وكان قد خطبها فى أثناء إقامته فى « مرو » ؛ وتعتبر الولائم والأفراح التى أقيمت فى ليالى العرس برهاناً ساطعاً على فخامة بلاط بغداد وعظمته ، إذ ظهر قصر أبيها المسمى قصر فم الصلح[1] بأبهى الحلل وأروع الزينات ، وقد أضاف فيه جميع حاشية الخليفة ١٧ يوماً[2] أفتن خلالها فى إظهار ضروب الكرم والسخاء . وتقول لنا الرواية العربية إن من جملة سيدات البلاط اللواتى حضرن حفلة الزفاف السيدة زبيدة وابنتها ، وكان جمالهن الأخاذ وفخامة ملابسهن مصدرين خصيبين لخيال الشعراء الذين دعوا هم أيضاً لمشاهدة الأفراح أما العروس فكانت أكثرهن جمالا وأشدهن فتنة ورواء . والمأثور أن جدتها حملت فى ليلة الزفاف صينية ذهبية وأخذت تنثر منها على الخليفة وعروسه ألف حصاة من الياقوت بمختلف الأحجام والأشكال ، فأمر الخليفة بجمعها ونظمها عقداً واحداً ثم قدمه بنفسه هدية إلى الملكة الشابة . أما غرفة العرس فقد أضيئت بشمعة من العنبر زنتها ٨٠ رطلا فى شمعدان من الذهب .

١٩٨–٢٣٢ هـ

وعند ما تحرك الموكب الملكى أهدى الوزير إلى المدعوين من كبار موظفى الدولة العطايا السنية ، وأنعم على الأمراء والزعماء ببنادق مسك فيها رقاع بأسماء

---

(١) كان الصلح جدولا عظيما يلتقى بنهر دجلة على بضعة أميال من واسط ، وكان يقع قصر فم الصلح عند التقاء هذا الجدول بنهر دجلة .

(٢) بلغت الأموال التى أنفقها الحسن ٥٠ مليون درهم .

ضياع وأسماء جوار ودواب وغير ذلك ، فكانت البندقة إذا ما تسلمها المدعو فتحها ثم مضى إلى الوكيل المعين لذلك فدفعها إليه وتسلم منه ما كتب فيها ، كذلك نثر الوزير على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك و بيض العنبر ، ولأجل أن يعوض له الخليفة عما أنفقه فى تلك الحفلات الرائعة وهبه خراج الأهواز وفارس لمدة سنة كاملة .

وقد كانت بوران من أشهر الفتيات المسلمات ، فاستطاعت بحدة ذكائها وفتنتها مع ما اتصفت به من متانة الخلق أن تحتل مكاناً سامياً فى قلب زوجها وتنال كل مطالبها ، فاستغلت مركزها عنده لخير الشعب ورفاهيته ، كما اشتهرت بالإحسان وفتح المستشفيات والملاجئ للنساء فى بغداد ، ويقال إنها عاشت بعد وفاة المأمون ٥٠ سنة فلم تشاهد الإمبراطورية وهى فى أوج عظمتها فحسب بل فى إبان اضمحلالها[1] أيضاً .

بابك الاباحى ٢٠١هـ ٨١٦م

وفى إبان عهد المأمون بينما كانت الإمبراطورية تعصف بها ريح الفتن الداخلية والحروب الأهلية ، شق أحد قطاع الطرق المسمى بابك عصا الطاعة واستولى على حصن منيع فى وهاد « مازندران » ، وهو ينتسب إلى الطائفة المانوية على المذهب الخرمى ، ويقول بتناسخ الأرواح ، والتحرر من قيود الأخلاق والأوضاع السماوية . ٨١٣ـ٨٤٧ م

وقد أخذ هذا الثائر يغير من حصنه — الذى اعتصم به فى قمم الجبال — على القرى المجاورة ، ويسبى النساء ويسلب الأموال ، ويعمل السيف فى رقاب الأهلين من غير ما رحمة ولا شفقة ، حتى وجهت الحكومة عليه الحملات العسكرية ، ولكنه كان ينتصر عليها وينكل بها فى كل مرة نظراً لمناعة حصنه وشدة تيقظه ؛ وظل الحال على هذا المنوال بضع سنين إلى أن حاصره جيش الخليفة حصاراً شديداً وسد عليه المسالك ، فلم يلبث أن هرع إلى الروم وتحالف

(١) وقد توفيت سنة ٨٨٣ م .

معهم على غزو البلاد الإسلامية ، وكان يجلس وقتئذ على عرش الدولة البيزنطية نيوفيلوس بن ميخائيل ، فتعاقد الاثنان وهجما على المدن الواقعة على الحدود يعيثون فيها فساداً وتخريبا ، حتى سارع إليهم المأمون بنفسه على رأس جيش جرار ، فاشتبك الفريقان فى ثلاث معارك متوالية ، دارت فيها الدائرة أخيراً على الروم وعلى حليفهم «بابك» ، فسألا الخليفة الصلح ، بيد أن تلك الحروب الدامية لم تمر دون أن تخلق جوا عدائيا بين الروم والمسلمين وتترك للأحفاد تراثاً من الضغائن لا يزال أثره باقياً فى الغرب حتى اليوم .

حرب الروم

ولما انتصر المأمون على جيش الروم وحليفهم وشتت شملهما ، أرسل إلى مصر جيشاً كبيراً برئاسة الأفشين — قائده التركى المشهور الذى بدأ نجمه يتألق فى ذلك العهد — وقد تمكن من الاستيلاء على الفرما وهى أقصى نقطة فى مصر العليا التى اعتصم فيها الثوار بعد أن منوا بشر هزيمة .

١٩٨ـ٢٣٢ هـ

ولأجل أن يحول الخليفة دون تكرر غزو الروم فى المستقبل أسس مستعمرة عسكرية فى الطوانة التى تبعد عن طرسوس حوالى ٧٠ ميلا ، ولكنه ما كاد ينجز هذا العمل حتى وافته منيته ؛ ويقال إنه بينما كان معسكراً بالبدندون من ضواحى طرسوس ، جلس ذات يوم من أيام الخريف مع أخيه على ضفاف النهر المسمى باسم المدينة ووضعا أقدامهما فى مياه النهر ، وإنهما لكذلك إذ أصابتهما حمى شديدة نقل المأمون على أثرها إلى «طورسوس» حيث توفى بعد مدة وجيزة ودفن فى بستان لأحد أتباع والده الأمناء فى تلك المدينة . أما المعتصم فقد أبل من مرضه واستطاع أن يسمع وصية أخيه المأثورة قبل وفاته ، ومما جاء فيها : « اعمل فى الخلافة إذا طوقكها الله عمل المريد لله الخائف من عقابه وعذابه ، ولا تغتر بالله ومهلته ، فكأن قد نزل بك الموت ، ولا تغفل أمر الرعية ، الرعية الرعية ، العوام العوام ، فإن الملك بهم و بتعهدك المسلمين والمنفعة لهم ، الله الله فيهم وفى غيرهم من المسلمين ، ولا ينهين إليك أمر فيه صلاح للمسلمين ومنفعة لهم إلا قدمته

١٨ رجب ٢١٨ هـ (٩ آب ٨٣٣م)

وفاة المأمون

وآثرته على غيره من هواك ، وخذ من أقويائهم لضعفائهم ولا تحمل عليهم فى شىء وأنصف بعضهم من بعض بالحق بينهم ، وقربهم وتأنهم وعجل الرحلة عنى والقدوم إلى دار ملكك بالعراق ، وانظر هؤلاء القوم الذين أنت بساحتهم فلا تغفل عنهم فى كل وقت » .

كانت ولادة المأمون سنة ١٧٠ هـ أى فى نفس اليوم الذى بويع فيه هرون الرشيد بالخلافة ، وكانت مدة خلافته ٢٠ سنة وستة أشهر عدا المدة التى كانت تقرأ فيها الخطبة باسمه فى جوامع مكة والمدينة ، وعدا المدة التى حوصر فيها الأمين ببغداد .

أخلاقه

كان المأمون قوى البنية بهى الطلعة لا يضارعه أحد من بنى العباس هيبة ووقاراً ، نظراً لما كان يتحلى به من الشجاعة والإنصاف وشدة العزم وبعد الهمة والبسالة وغيرها من الصفات المحمودة والخصال السامية ، وقد سجل له التاريخ سلسلة طويلة من الوقائع والحوادث الخالدة ، وعلى الجملة لم يسبق أن اعتلى عرش الدولة العباسية خليفة يضاهيه حكمة وبعد نظر .

المدنية والعلوم ٨١٣ـ٨٤٧ م

وقد كان عصره ألمع عصور الحضارة العربية على وجه الإطلاق فسمى بحق العصر الإسلامى الذهبى ، ولا مشاحة أن العشرين سنة التى قضاها فى الحكم تركت كنوزا زاخرة من الثروة الفكرية ، ولم تقتصر هذه النهضة على ناحية معينة من العلوم أو الآداب ، بل شملت جميع نواحى التفكير والثقافات ، فازدهرت فى عهده العلوم الفلسفية ، وانتعشت الحركة العلمية ، وارتقت العلوم الرياضية والفلك والطب وما إلى هذه العلوم خلال تلك المدة اللامعة فى تاريخ الحضارة الأسيوية ، وانتقل تراثها فيما بعد إلى الأندلس والقسطنطينية المسيحية ، ومنها سطعت على أوربا الحديثة بنورها المتألق . والمعروف أن المأمون كان يذهب إلى أن سعادة الشعب الحقيقية تتوقف على انتشار العلم وبث الثقافة ، فلم يقنع ببقاء نشر التعليم عالة على سخاء الخلفاء أو الهدايا التى يمنون بها عليهم من حين لآخر

بل أرصد الأوقاف للصرف منها على تشجيع الحركة الفكرية ، وفتح المدارس والكليات فى سائر أنحاء الدولة . ويقول المؤرخ أولسنر فى هذا الشأن : « إنا نشاهد فى عصر المأمون حكومة دينية أوتوقراطيـة تشجع لأول مرة الفلسفة وتعمل على ازدهارها » . وكان المأمون فى تساهله المشهور لا يؤثر مذهبا أو جنساً خاصا بل أباح الاستخدام فى مناصب الحكومة لجميع المتعلمين على اختلاف أديانهم ونحلهم ، ومنذ سقوط الجمهورية الإسـلامية وتأسيس الحكومة الأوتوقراطية كان الوزراء هم المستشارون الوحيدون للخلفاء ، غير أن المأمون أنشأ مجلساً استشاريا للدولة يتألف من ممثلى جميع الطوائف ، وأصبح هذا الديوان يضم المسلمين واليهود والمسيحيين والصابئيين والزرادشتيين على حد سواء ، وكانت حرية الاعتقاد والعبادة مضمونة للجميع ؛ أما الخلافات وما كان يعقبها من الاضطهادات المؤقتة فلم تكن إلا نتيجة من نتائج أخلاق بعض الحكام المحليين وسوء إدارتهم ، بيد أن حرية الاعتقاد فى عصر المأمون شملت الجميع ، وأضحت مضرب الأمثال فى التساهل حتى بلغ عدد الكنائس التى شيدت فى عهده ١١٠٠٠ كنيسة علاوة على مئات الهياكل اليهودية ومعابد النار ؛ وكان بطريركا أورشليم وأنطاكية زعيما الكنيسة المسيحية ومن يتلوهما فى المرتبة الدينيـة من مطران وأسقف وكاهن يتمتعون جميعاً بالامتيازات والحصانات الكاملة التى كان يتمتع بها أمثالهم فى الدول المسيحية التى تدين بدينهم .

مجلس شورى المأمون ١٩٨–٢٣٢هـ

العقليون فى عهد المأمون

كذلك رأى المأمون بثاقب فكره منحى الآراء التى أخذت تتسرب بالتدريج إلى المدرسة التى كان يرأسها والشدة التى لابستها بمضى الزمن ، وما أفضت إليه هذه الشدة من نتائج وتأثيرها فى المجتمع ، فاعتقد اعتقاداً جازما بأن التمسك بتلك الآراء تهمة خطيرة ، لأنها فى رأيه كانت ترمى إلى خنق كل حركة اجتماعية أو سياسية ثم تنتهى أخيراً بتقويض دعائم الدولة ؛ كما أدرك ما قد يؤول إليه حشو عقل الإنسان بالآراء الجامدة ، ولهذا نراه ينشط خلال السنوات الأربع

الأخيرة من حكمه إلى العمل على تحرير الفكر الإنسانى من الأغلال التى بدأ يتقيد بها .

ولم يكن ثمة من يعادله فى الأخذ بناصر تلك النهضة الفلسفية إذ كان متفوقا على معظم علماء عصره فى الحديث والفقه ودراسة القرآن وفهمه ، فضلا عن أنه كان أحد تلاميذ الإمام الرضا الذى أخذ عنه حب الفلسفة والعلم وحرية الفكر . ٨١٣ـ٨٤٧م

مذهب الاعتزال

وقد شاهد النصف الأول من القرن الثانى حركة الاعتزال التى قام بها واصل بن عطاء أحد تلاميذ الإمام جعفر الصادق المعروف برحابة الصدر ، وقد أخذ عنه « واصل » تقدير الفكر الإنسانى . وتقول لنا الرواية العربية بأن « واصلا » جالس حسن البصرى ، ولما اختلف معه فى بعض القضايا اعتزله وسمى أتباعه بالمعتزلة [1] كما أطلق على مذهبه اسم « الاعتزال » . أما مذهب المحدثين فكان يقرر بضع عقائد يراها واصل بن عطاء مخالفة لمذهبه ، ذلك أنها تقول بأن أعمال الإنسان مقدرة قبل وقوعها ، أو بمعنى آخر أن الإنسان ليس مخيراً فى إرادته ، وأن العالم الآخر مادى ، وأن الله يرى بالعين وصفاته قائمة بذاته وأن القرآن غير مخلوق بل موجود منذ الأزل .

المعتزلة

أما المعتزلة فيذهبون من الجهة الأخرى بالاتفاق مع الأئمة إلى أن الإنسان حر فى خلق أفعال نفسه الاختيارية خيراً كانت أو شرا [2] ، وأنه ليس ثمة آخرة مادية ، ولا يمكن أن يرى الله عياناً ، لأن ذلك يدل على التجسيم [3] وأن

(١) ذكر الشهرستانى فى (الملل والنحل) وابن رستة فى (الأعلاق النفيسة) وابن خلكان فى (ترجمة قتادة) « أن واصلا وعمرا بن عبيد اعتزلا حلقة الحسن على أثر تقريرهما أن مرتكب الكبيرة فى منزلة وسط بين الإيمان المطلق والكفر المطلق » . وذكر المسعودى فى (مروج الذهب) « أن المعتزلة يقولون بأن صاحب الكبيرة اعتزل عن الكافرين والمؤمنين » . (المعرب)

(٢) يقول المستشرق دى بوير فى كتابه (تاريخ الفلسفة الإسلامية) « علل بعض المعتزلة وجود الشر على الأرض بأنه من آثار الحكمة الإلهية التى تأتى بالأحسن فى كل شىء ولكن ليس الشر نتيجة أو غاية لفعل الله » . (المعرب)

(٣) يقول الغزالى فى كتابه (تهافت الفلاسفة) : « إن المبدأ الأول (أى الخالق) =

صفات[١] الله غير منفصلة عن ذاته ، وأن القرآن مخلوق . وتؤيد المعتزلة أيضاً أنه ليس ثمة قانون أبدى فيما يخص أعمال الإنسان ، وأن القوانين الإلهية التى تعين سلوك الناس إنما هى نتيجة من نتائج التطور ، وأنها عرضة لنفس قانون التغيير ذلك القانون الذى به يسيطر الخالق على الكون .

اعتنق المأمون مبادئ المعتزلة وحاول نشرها إذ كان يعتقد أن خدمة المسلمين وكل أمل فى التقدم والرقى إنما يتوقف على اعتناق هذه المبادئ . وفى سنة ٢١٧ هجرية أوعز إلى والى بغداد بأن يجمع أشهر الفقهاء والعلماء ويمتحنهم فى هذه المسألة الخطيرة ، ثم يرسل إليه إجابتهم ، فأعرب معظم فقهاء بغداد وعلمائها — سواء على سبيل الاعتقاد أو للمداراة — عن موافقتهم على آراء الخليفة إلا أن البعض بقى ثابتاً على عقيدته قائلا بأن القرآن غير مخلوق ، ومنهم أحمد بن حنبل[٢-٣] الذى أثبت أنه أشدهم تعصباً . ولو أمد الله فى عمر المأمون لاستطاع بشخصيته الفذة ، وعبقريته النادرة ، وتضلعه فى علوم الدين أن يقضى على عناد المعارضين القلائل ؛ وقد اقتفى خليفتاه أثره وحاولا أن يكملا عمله ، ولكن كانت تنقصهما الكفاية ورحابة أفق التفكير . وقد بلغ المذهب العقلى فى عهد هؤلاء

المذهب العقلى الإسلامى ٨١٣-٨٤٧ م

= فاض من وجوده العقل الأول ، وهو موجود قائم بنفسه ، ليس بجسم ولا منطبع فى جسم يعرف نفسه ويعرف مبدأه » . (المعرب)

(١) يقول المقريزى : « إنه ظهرت فرقة المشبهة وعارضت المعتزلة معارضة شديدة فى إثبات صفات الله وانقسمت إلى سبع فرق » . (المعرب)

(٢) أصبح الإمام أحمد بن حنبل مؤسس المذهب السنى الرابع وقد أدى تعصب أتباع ابن حنبل فى عهد الخلفاء المتأخرين إلى فتن متواصلة ، وما ينجم عنها من شغب وإراقة دماء .

(٣) جاء فى وفيات الأعيان لابن خلكان ص ٨ ج ١ « أنه ولد فى بغداد فى شهر ربيع الأول سنة أربع وستين ومائة ، وقيل إنه ولد بمرو وحمل إلى بغداد وهو رضيع ؛ وكان إمام المحدثين ، صنف كتابه المسند ، وجمع فيه من الحديث ما لم يتفق لغيره ، وكان من أصحاب الإمام الشافعى رضى الله عنهما وخواصه ، ولم يزل مصاحبه إلى أن ارتحل الشافعى إلى مصر ، ودعى إلى القول بخلق القرآن فلم يجب فضرب وحبس وهو مصر على الامتناع ، وكان حسن الوجه ربعة . أخذ عنه الحديث جماعة من الأماثل ، منهم محمد بن إسماعيل البخارى ، ومسلم ابن الحجاج النيسابورى » . (المعرب)

الخلفاء الثلاثة شأواً لم يبلغه حتى فى العصور الحديثة فى الممالك الأوربية ، إذ كان دعاة المذهب العقلى وقتئذ يخطبون فى الجوامع ويحاضرون فى الكليات . وعلى الجملة طفقوا يوجهون شباب الأمة كما يريدون ؛ ولا يمكننا أن نغمطهم حقهم ، أو ننكر عليهم نفوذهم الذى استعملوه بكل حكمة وروية ، فقد اشترك جميع قادة الفكر من أساتذة ووعاظ وعلماء وأطباء ووزراء وحكام فى ترقية الشعب العربى ورفع مستواه العلمى والثقافى .

العلوم والآداب

كان عصر المأمون ألمع عصور التاريخ الإسلامى دون منازع ، ولا جرم أن دراسة العلوم ونشر الثقافة أكبر دليل على رقى الشعب وتطوره ، فقد كان البلاط يعج بالعلماء والشعراء والأدباء ورجال الطب والفلاسفة ، الذين كانوا يهرعون إليه من كل حدب وصوب على اختلاف مذاهبهم ونحلهم ؛ وقد كان المأمون يتفانى فى إكرامهم ، ويشمل كل من يقصده منهم ببره وعطفه دون أى تفريق . ويقول مؤرخ فرنسى معروف بإنصافه لمدنية العرب ونشاطهم الفكرى : « إن المأمون طبع عصره بطابعه الخاص ، وأكسبه تلك العظمة الأدبية التى اشتهر بها فيما بعد » .

كذلك يعزى إليه فخر إنجاز العمل الذى بدأ به جده المنصور ، إذ أحاط نفسه برهط من الحكماء والفنانين الذين أحيوا له عهد مكتبة الإسكندرية ، وتمكن باتصاله ببراطرة القسطنطينية من جلب أشهر كتب الفلسفة اليونانية من « آثينا » ، ولم تكد تلك الذخائر النفيسة تصل إلى بغداد حتى عهد بترجمتها إلى العلماء الأفذاذ ، ثم أمر بنشرها على الجمهور ، وكان يشرف قسطا بن لوقا على قسم الترجمة[1] من اليونانية والسريانية والكلدانية ، ويحيى بن هرون على

(١) إن أشهر المترجمين فى عهد المأمون هم : يوحنا ، أو يحيى البطريق ، والحجاج بن يوسف بن مطير الكوفى ، وقسطا بن لوقا البعلبكى ، وعبد المسيح بن ناعمة الحمصى ، وحنين ابن إسحق ، وابنه إسحق بن حنين ، وثابت بن قرة ، وجبش الأعسم وغيرهم .
(المعرب)

قسم الفارسية القديمة ، كما أودعت رئاسة الترجمة من السنسكريتية إلى « دبان البراهمى » . كذلك شجع المناظرة والإنتاج بتأسيس الدوائر الخاصة بإشراف الأساتذة الأعلام ، وأغدق على المؤلفين المنح والعطايا ، وتعد من الأهمية بمكان عظيم تلك الأرصاد الفلكية التى تمت فى عهد المأمون كالاعتدال الشمسى ، والخسوف والكسوف ، ورصد النجوم المذنبة والمظاهر الفلكية الأخرى ، وقياس حجم الكرة الأرضية .

لقد عنى العرب بكل ذلك وقت أن كانت أوربا المسيحية تبرهن على أن الأرض مسطحة ؛ كما اخترع أبو الحسن التلسكوب ويصفه بأنه أنبوب فى طرفيه عدسات لانعكاس الضوء . وقد تحسنت تلك الأنابيب واستعملت فيما بعد فى مرصدى مراغة والقاهرة بنجاح عظيم ، وصنفت الكتب فى الرياضيات والهندسة والفلسفة والفلك والمترولوجية وعلم البصريات والميكانيكا والطب ؛ كذلك صرفت أقصى العناية فى دراسة الطب ، ويدلنا كثرة عدد الأطباء الممتازين الذين كانوا يشتغلون فى البلاط على رعاية المأمون لهذا العلم . ولا ننسى أنه كان أول من بنى مرصداً فى العالم الإسلامى فى الشماسية على سهول تدمر ، ثم بنى عدة مراصد أخرى فى واسط وأبامية و بعض المدن الأخرى . ولا يفوتنا أنه نجم عن احتلال العرب لبلاد فارس تدهور اللغة الفارسية وآدابها ، إذ أهملها سكان البلاد الأصليين وأقدموا على تعلم اللغة العربية ودرسها ، ولكن المأمون بما عرف عنه من الرغبة فى إحياء العلوم القديمة عنى بترقية اللغة الفارسية التى كان قد تسرب إليها ألوف من الكلمات العربية ، ومن الذين تألق نجمهم فى ذلك العهد الشاعر عباس المروى[1] واضع أساس الشعر الفارسى الحديث .

الثقافة الفارسية ٨١٣–٨٤٧ م

وقد كان يوم الثلاثاء معداً للمناقشات الفقهية والمناظرات الفلسفية والأدبية فكان الأدباء والعلماء والفلاسفة يؤمون القصر فى الصباح حيث يقدم لهم الفطور

الحلقات (المناظرات الفلسفية)

(١) نسبة إلى مرو .

وما أن يصيبوا منه الكفاية حتى يدخلوا على الخليفة فى الإيوان المخصص لتلك المناظرات التى كان يرأسها بنفسه ، ولم تكن لتنتهى إلا بعد صلاة العشاء ؛ فيدخلون حجرة أخرى حيث تعد لهم الموائد لتناول الطعام ، فإذا ما فرغوا منها انصرفوا إلى حال سبيلهم . أما سائر أيام الأسبوع فكانت مخصصة لمعالجة شؤون الدولة ، وكان الخليفة يجلس بنفسه للنظر فى حوائج الناس ، ولم يكن ليترك صغيرة ولا كبيرة إلا ويدرسها ؛ كذلك لم يكن يفرض أى عقاب إلا بدافع مستلزمات القانون ومقتضيات السياسة ، نظراً لما كان يتصف به من العدل والتسامح .

حصافة المأمون

ومن أعظم الأدلة على حصافة المأمون وسداد رأيه أنه « استطاع أن يكتفى شر أحد الخوارج المغالبين بأيسر الخطب » وذلك أن أحد هؤلاء كان قد دخل عليه ذات يوم دون خوف أو وجل ووقف على طرف البساط ، ثم قال : « السلام عليكم ورحمة الله » فرد المأمون عليه السلام ، فقال الخارجي : « أخبرنى عن هذا المجلس الذى أنت قد جلسته أباجتماع من المسلمين عليك أم بالمغالبة لهم بالقوة عليهم بسلطانك ؟ » ، فقال المأمون : « لا هذا ولا ذاك ! وإنما أنا رجل عقد لى ولأخى معى ، ولما صار الأمر إلىّ علمت أنى أحتاج إلى اجتماع كلمة المسلمين ، ولكنى رأيت أنى متى تخليت عن هذا المنصب اضطرب حبل الإسلام وانتقضت أطرافه وغلب الهرج والفتنة ووقع التنازع ، فتعطلت الأحكام ولم يحج أحد بيته ولم يجاهد فى سبيله ، فقمت بهذا الأمر حياطة للمسلمين ومجاهداً لعدوهم إلى أن يجتمع المسلمون على رجل تتفق كلمتهم عليه وعلى الرضا به فأسلم الأمر إليه » ، فقال ١٩٨–٢٣١هـ الخارجي : « السلام عليكم ورحمة الله » ثم رجع أدراجه . فأنفذ المأمون أحد جلسائه ليتعقبه ، فاتضح أنه كان زعيم جماعة من المغالين اجتمعوا لإضرام نار الثورة وإعلان العصيان ، ولكن الخليفة بسداد رأيه وحصافته هدأ من غلوائهم ، وجعلهم

أبو إسحق محمد المعتصم بالله ٢١٨–٢٢٧ هـ ٨٣٣–٨٤٢ م

ينصرفون بسلام . ويقال إن المأمون كتب وصيته قبيل وفاته يعهد فيها إلى أخيه أبى إسحق محمد الملقب بالمعتصم بالله (أو المعتصم على سبيل الاختصار) ؛ ومن العسير أن ندرك فى هذا العصر بعد تقادم العهد الأسباب التى حملت المأمون على إغفال ابنه العباس ، الذى كان يتمتع بشهرة واسعة بين الجنود وخصوصا الجنود العرب ، ومن المرجح أنه خشى أن يعجز ابنه عن تنفيذ السياسة التى وضع خططها لتمشية شؤون الدولة ، ولعله رأى كذلك فى شدة شكيمة المعتصم ومتانة خلقه ونضوج فكره ما يضمن له تنفيذ تلك السياسة .

٨١٣–٨٤٧ م

ولما بويع المعتصم ضج الجيش فى بادئ الأمر وأراد أن يبايع العباس الذى أسرع فى الحال إلى مبايعة عمه بالخلافة محترما بذلك وصية أبيه ، فحذا الجيش حذوه وهكذا تمت البيعة للمعتصم فى طرسوس ، ولكنه لقصر نظره ولربما لجهله عواقب الأمور أوقف بناء « طوانة » وأعاد إلى طرسوس الذخائر والأسلحة التى كانت قد أرسلت إلى تلك المدينة ، وفيما عدا هذا الحادث يمكننا أن نقول بأنه بذل أقصى جهده فى ترسم خطط أخيه واقتفاء أثره بكل دقة وأمانة .

تكوين الفرق التركية

ولكن أشنع خطأ ارتكبه المعتصم هو تشكيل فرق عسكرية من الأتراك[1] والأجانب الذين أضحوا سببا مباشراً فى إضعاف سلطان الخلافة وتقويض دعائمها . والمعروف أنه كان ينتظم فى سلك تلك الفرق المماليك[2] الأتراك ، والمرتزقة من آسيا الصغرى وبلاد اليمن ومصر ، ويطلق على الذين يأتون من وراء النهر أهل فرغانة ، وعلى الذين يأتون من اليمن وأفريقا اسم المغاربة ، وكان يقودهم ضباط من جلدتهم تحت إمرة الخليفة مباشرة ؛ وعليه أصبح هذا الجيش فى عزلة تامة عن جيوش العرب والفرس . ولا عجب أن صار لهؤلاء الأتراك من القوة ما كان للحرس الرومانى قديما ، حتى أصبح بيدهم بعد مدة وجيزة عزل الخلفاء وتعيينهم

(١) ينبغى التمييز بين أتراك العصر الحاضر وتركمان ذلك العهد ، إذ أن الفرق بين الاثنين لا يقل عن الفرق بين السكسونيين فى القرن الثامن والانكليز فى العصر الحاضر .

(٢) السلاف .

نقل العاصمة

حسب رغباتهم وأهوائهم ؛ وكانوا يلبسون أفخر الملابس ويجرون الخيول فى شوارع بغداد فيصدمون الناس فى الطرق ، فلما اشتد سخط أهل العاصمه ، وشعر الخليفة بانتشار روح التذمر بين السكان ، انتقل مع جنوده المحبوبين إلى محل (١٩٨-٢٣٢هـ) يسمى سامرا أو (سر من رأى) وهو الاسم الذى عرفت به فيما بعد ، وابتنى لنفسه قصراً فخما ، وشيد الثكنات العسكرية لسكن ٢٥٠ ألف جندى ، والاصطبلات الواسعة لاستيعاب ١٦٠ ألف حصان ؛ كما قطع القطائع إلى الرؤساء الأتراك الذين بنوا لهم قصوراً ضارعت قصر الخلافة عظمة وفخامة .

الزط (جت) فى العراق

وقد عرف ذلك العصر بظهور قبيلة هندية اسمها الزط أو « الجت » نزلت على سواحل دجلة . أما كيف وفدت على تلك البلاد فليس ثمة ما يكشف لنا اللثام عن هذا السر الغامض ؛ إنما كل ما يعرف عنهم أن عددهم كان يبلغ ١٧ ألف نسمة ، وأنهم كانوا يعيثون فى البلاد فساداً حتى وجه إليهم المعتصم قوة صغيرة ظلت تقاتلهم وتلح عليهم حتى اضطرتهم إلى التسليم ، فأرسلوا فى زوارقهم إلى بغداد كى يشاهد الخليفة ملابس نسائهم ، ومن ثم نقلوا إلى صقلية حيث هاجمهم الروم وذبحوا معظمهم ، وعندئذ تفرقت البقية الباقية منهم فى تريستا[1] .

وفى سنة ٨٣٥ توفى فى بغداد الإمام « محمد التقى » الذى كان هو وزوجه أم الفضل بنت المأمون فى ضيافة المعتصم ؛ فتولى الإمامة من بعده ابنه « على » .

وفى تلك الأثناء اشتد أمر بابك وعاث فى البلاد فساداً ، وانتشر هو وأتباعه يعيثون فى المدن والقرى سلبا ونهباً ، حتى أرسل إليه المعتصم جيشاً بقيادة « الأفشين » أحد قواده الأتراك المشهورين ، وبعد نشوب سلسلة معارك شديدة بين الفريقين استولى الأفشين على حصن الثائر المنيع ، وألقى القبض على ابنه وأقاربه وأرسلهم جميعاً إلى بغداد حيث عوملوا بالرحمة والعطف . غير أن بابك كان قد هرب مع أخيه إلى أرمينيا فقبض عليهما زعيم من زعماء تلك البلاد

٨١٣-٨٤٧ القبض على بابك

(١) يظهر أن البوهيميين أو النورمن سلالة هؤلاء الأقوام .

obeikandl.com

وسلمهما إلى الأفشين الذى أرسلهما إلى بغداد ، ولما كانت جرائمهما أعظم من أن تغتفر أمر الخليفة بحمل بابك على ظهر فيل ، و بعد أن طوف به فى شوارع المدينة نفذ فيه وفى أخيه حكم الإعدام .

و يقال إن الأفشين عند ما استولى على الحصن فك سراح ٧٠٠٠ امرأة مسيحية ومسلمة كان بابك قد أسرهن ؛ و يقال بأن الخليفة استقبل قائده المنتصر استقبالا رائعاً ، وأغدق عليه النعم والعطايا . غير أن هذه الحوادث لم تنته بسلام كما كان ينتظر ، إذ بينما كان الأفشين مقيما فى مازندران تحالف ملك الروم مع بابك ، وهجم بجيشه الجرار على كبيدوكيا ليثأر لحليفه ، و بلغت به الشراسة مبلغاً عظيما بحيث أحرق المدن ، وأعمل السيف فى رقاب الرجال ، وطفق يأسر النساء والأطفال ، كما أشعل النار فى « بطره » مسقط رأس المعتصم ، وكان يمثل بالرجال أشنع تمثيل ، فيسمل عيونهم و يشوه وجوههم بالحديد المحمى . ولما بلغت تلك الأخبار الوحشية مسامع المعتصم اشتد سخطه ، وأقسم ليثأرن لهؤلاء الضحايا البائسين ، فعبأ جيشاً لجباً وسار به صوب الشمال ، وما هو إلا أن التقت مقدمته بجيش تيوفيلس فى ظاهر أنقرة ، وألحقت به خسائر فادحة ، ثم سارع إلى عمورية[1] مسقط رأس تيوفيلس ، وفتحها عنوة بعد أن جد فى حصارها ٥٠ يوما فدمرها تدميراً ، وقتل من سكانها ٣٠,٠٠٠ ، وأرسل من بقى حيا منهم إلى بغداد مع القائد اليونانى « ماطس » ؛ ولكن الخليفة لم يكد يبدأ بالزحف على القسطنطينية ليفتحها و ينزل الضربة القاضية بالقوة البيزنطية حتى اكتشف مؤامرة خطيرة فى معسكره ، فتوقف عن الزحف ، وقد تبين له من التحقيق أن بعض القواد العرب الذين كانوا يسخطون على الأترك للنفوذ الذى يتمتعون به و يحقدون على الخليفة لسوء معاملته إياهم قد تآمروا مع « العباس » بن المأمون على اغتياله ؛ وقد شاءت الصدف أن تكتشف هذه المؤامرة قبل استفحالها ،

الحروب مع الروم

١٩٨ـ٢٣٢ هـ

(١) مكانها الآن مدينة (سدرى حصار) بتركيا . (المعرب)

فأمر بإلقاء القبض على المتآمرين وحكم عليهم بالقتل ، ومن ضمنهم العباس ، ثم قفل راجعاً إلى سامرا بعد أن عقد معاهدة صلح مع « تيوفيلس » الذى أضعفته موقعة « عمورية » . وفى سنة ٢٢٤ هـ شق المازيار المانوى أمير طبرستان عصا الطاعة ؛ ولما كان الأفشين يعتقد أن عبد الله بن طاهر لا يقوى على قمع تلك الثورة بنفسه ، وأن المعتصم سيضطر أخيراً إلى توليته إمارة المشرق بدلا من عبد الله ، فقد راح يحرض المازيار سرا على مواصلة الحرب إلى النهاية ، ولكن عبد الله لم يلبث أن أسر « المازيار » وحمله إلى بغداد ، وفى حضرة الخليفة أقر ذلك الثائر على الأفشين وأظهر الكتب التى كان قد أرسلها إليه ، فحكم المعتصم على « المازيار » بالقتل ، كما حبس الأفشين حتى وافته منيته . ويظهر أن القائد التركى المنكود كان مثقفاً إلى حد بعيد ، إذ تبين أنه كان يملك كمية ضخمة من المؤلفات النادرة بمختلف اللغات ، وعدة تماثيل آية فى الروعة والجمال ، وجميعها تؤيد إلى حد بعيد بأنه سبق عصره وجاء قبل أوانه ، فأراد أن يحيط نفسه بالمجلدات الأدبية النادرة ، والآثار الغريبة التى كانت تحمل إليه من مختلف الأمصار.

٨٣٩ م

وقد أصيب المعتصم بمرض عضال[1] قضى عليه فى ١٩ ربيع الأول سنة ٢٢٧ هـ . ويقال إنه صرف شطراً من عنايته فى تحسين الزراعة ، واهتم اهتماما خاصا باستثمار موارد البلاد الطبيعية ؛ ومع أنه كان سريع الغضب قاسياً ، إلا أن قاضى القضاة أحمد بن أبى دؤاد كان دائماً يهدئ من نزواته ويحبط الأعمال الجائرة التى كان يشير بها وزيره . ويصف أحد المؤرخين أحمد بن أبى دؤاد بأنه من أولئك الرجال الأفذاذ الذين وهبوا صفات ممتازة ، ويشيرون باتباع الحق وحب الصدق والحض على الفضيلة ، وقد كان فوق ذلك زعيم المعتزلة .

وفاة المعتصم ٢٢٧ هـ (٥ كانون الثانى ٨٤٢ م)

وخلف المعتصم ولده أبو جعفر هرون الواثق بالله الذى كان ، برغم افتراء بعض الكتاب المتعصبين ، حاكما ماهراً كريماً صبوراً واسع المعروف ، لم تشب

أبو جعفر هرون الواثق بالله ٢٢٧ـ٢٣٢ هـ ٨٤٢ـ٨٤٧ م

(١) مرض الاستسقاء . (المعرب)

أخلاقه قط أية شائبة برغم حبه للمجون ، وكان مغرماً بالآداب والعلوم ، مشجعاً للتجارة والصناعة ، يميل إلى الموسيقى ميلا خاصا أدى به إلى الاشتراك فى تهذيب أنغامها ، ويقال إنه وضع بعض الأصوات[1] والأنغام الجديدة ؛ وكان إحسانه يفوق حد الوصف بحيث لم يكن يرى فى البلاد الإسلامية فى خلال حكمه متسول واحد ، وفى عهده تبودلت الأسرى بين الروم والمسلمين .

١٩٨ـ٢٣٢ هـ

ولكن مما يؤاخذ عليه أنه استمر على خطأ أبيه فى استخدام الأتراك وإهمال شأن الجيوش العربية والفارسية ، كما عين أشناصاً التركى سلطاناً للدولة وتوّجه بتاج مرصع ، وسوّره بسوارين من ذهب ؛ كذلك حاول أن يبث مبادئ حرية الفكر فى الشعب ، ولكن محاولاته ذهبت أدراج الرياح إذ قاومها القضاة الرجعيون الذين اشتغلوا سرا ضده ؛ ويعتبر موته السابق للأوان خسارة لا تعوض ، إذ انقضى بموته عهد العظمة العباسية ، فأضحى تاريخ هذه الأسرة فى خلال القرنين التاليين صورة مضطربة لحكام يرتقون عرش الخلافة لا حول لهم ولا قوة ، ثم يوارون التراب غير مأسوف عليهم . وقد توفى الواثق فى مدينة سرّ من رأى فى ٢٤ ذى الحجة سنة ٢٣٢ هـ .

وفاة الواثق ١١ آب ٨٤٧ م

---

(١) جاء فى الأغانى ج ٩ ص٢٧٧ أن الواثق صنع مائة صوت ليس فيها صوت واحد ساقط . (المعرب)